المختار من كنوز السنة

عن أنس -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحب المرء لا يُحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار» (أخرجه الخمسة إلا أبا داود)(١).

أ.د. محمد عبدالله دراز (*)

«أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما»: هذه هي **الْخَلَّةُ الأولى**: و «أحبَّ»: اسم تفضيل من المبني للمجهول، فالمعنى أن يكون الله ورسوله أشد محبوبيه عنده من كل محبوبٍ سواهما.

و «ما سواهما» يتناول الأموال والأولاد والوالدين والأهلين والناس أجمعين، كما فصَّلته الروايات الأخرى عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين»(٢). وفي رواية أخرى للنسائي: «حتى أكون أحب إليه من ماله وأهله والناس أجمعين». ومصداق ذلك في كتاب الله -تعالى-:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾

(التوبة: ٢٤)

بل يتناول الأنفس، فلا يؤمن عبدٌ حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه من نفسه التي بين جنبيه. صرح بذلك الحديث الصحيح الذي رواه البخاري في أوائل الأيمان والنذور عن عبدالله بن هشام أن النبي ﷺ كان آخذًا بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله! لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيءٍ إلا من نفسي. فقال ﷺ: لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر: فإنه

(*) نال عضوية كبار العلماء عام ١٩٤٩م وتوفي عام ١٩٥٨م.

(١) جامع الأصول: ١/٢٣٧ - الكتاب الأول في الإيمان- الفصل الثاني في المجاز- الحديث رقم (٢٠). وتيسير الوصول: ١/١٨. والبخاري: ١/ ١٠- كتاب الإيمان -باب حلاوة الإيمان. ومسلم: ١/٦٦-١- كتاب الإيمان -١٥- باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان- الحديث رقم (٦٧).

(٢) صحيح البخاري: ١/١٠ - كتاب الإيمان - باب حب الرسول ﷺ من الإيمان.

الآن[٣]، والله! لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال ﷺ: الآن يا عمر!».

أما معنى المحبة هـا هنا فقد زعم بعض الناس أنها لا تُتصورُ بحقيقتها بين الخالق والمخلوق، إذ لا بد فيها من مُشاكلة ومُجانسة بين المحب والمحبوب، وذلك مُستحيلٌ في حقه -تعالى-، فتُئول محبةُ الله بمعنى العمل بطاعته، وليست الطاعة هي المحبة، بل هي إحدى ثمراتها.

ولو كانت المحبة كما يزعم هذا القائل لا تُبنى إلا على قاعدة التجانس المادي والتزاوج من الفصيلة الواحدة. فلماذا نحب شَمَّ الرياحين والنظر إلى الحدائق المنسقة والأنهار الجارية؟ بل لماذا نُحب اللذائذ العقلية والكمالات المعنوية؟ إن هذا القائل لم يفهم من المحبة إلا أدنى أنواعها إلى إلْفِه، وهي محبة الحيوان للحيوان، ولم يَذُقْ ما وراءها من مراتب.

وحقيقة المحبة أوسع من ذلك، فهي ميلُ القلب إلى كل ما يرضاه ويستحسنه. وبواعث هذا الاستحسان تختلف: فمنه ما يبعث عليه الطبع الجثماني، كمحبة الصورة الحسنة والصوت الجميل والرائحة الذكية، ومنه ما يبعث عليه العقلُ، كمحبتنا للحكماء والبلغاء ولأهل البر والإحسان ولأهل الصلاح والتقوى ولكل ما هو كمالٌ وخيرٌ، إما لذاته، وإما لما يؤديه إلينا من نفع.

ومحبة الله ورسوله هي أرقى أنواع هذه المحبة العقلية وأقواها باعثًا فمن كان باعثُ المحبة عنده معرفة ما في المحبوب من كمالٍ ذاتيٍّ فالله -تعالى- أحق بمحبته، إذ الكمال المطلق خاصةُ ذاته، والجمالُ الأتمُّ ليس إلا لصفاته. والرسول ﷺ أحق من يتلوه في تلك المحبة، لأنه أكرم الخلق على ربه، وهو ذو الخُلُق العظيم والهدي القويم. ومن كانت محبته للغير تُقاسُ بمقياس ما يُوصله إليه ذلك الغير من المنافع وما يُغدقه عليه من المبرات فالله -تعالى- أحق بهذه المحبة أيضًا، فإن نِعَمَهُ علينا تجري مع الأنفاس ودقات القلوب ولا نعمة إلا هو مصدرها:

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾

(النحل: ٥٣)

﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾

(النحل: ١٨)

وهذا الرسول الكريم الرءوف الرحيم هو واسطة النعمة العُظمى، إذ هو الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهدى واستنقذنا به من النار بعد أن كنا على شفا حُفرة منها، فليس بعد الله أحدٌ أمَنَّ علينا منه، ومحبتهُ في الحقيقة شُعبةٌ من محبة الله، قال ﷺ: «أحبوا الله لما يَغذوكم به من نِعَمِه، وأحبوني لِحُبِّ الله، وأحِبوا أهل بيتي لِحُبي» (رواه الترمذي وصححه).

وليس معنى المحبة العقلية أن يُدرك العقل تلك الكمالات والفضائل في المحبوب ويعتقد عظمتَهُ وعُلُوَّ منزلته وإن لم تشعر النفس بالميل إليه كما مَثَّلَهُ الإمام البيضاوي بالمريض يميل إلى الدواء بمقتضى عقله وإن كان ينفرُ منه بطبعه.

(٣) ليس الجديد عند (عمر) هو حصول تلك المحبة الراجحة منه للنبي ﷺ، وإنما الجديد هو إدراكه لتلك المحبة والتفاته إليها. تقرير ذلك أنه كان في أول الأمر قد امتحن نفسه أمام حُب المال والولد والزوج والعشيرة والمسكن والتجارة فوجد حُبهُ لهذه الأشياء كلها مرجوحًا بجانب حبه لرسول الله ﷺ ولم يكن قد جرى بعد في خاطره حديث المقارنة بين حُبه له وحبه لنفسه، فلم يجرؤ أن يحكم فيه بشيءٍ بل استثنى نفسه من تلك المقارنة سكوتًا عن الحكم بما لم يختبره لا حُكمًا بعدم ذلك الرجحان. فلما نبهه ﷺ فَكَّرَ وقارن وتحسس حال قلبه؛ فإذا هو يجد من رجحان محبته للرسول عن محبته لنفسه ما كان غافلًا عنه، لا ما كان خلوًا منه، فقوله ﷺ: «الآن يا عمر!» معناه الآن أصبت في قولك وأحسنت التعبير عما في نفسك.

كلا، فإن من كانت محبتهُ لله ورسوله كمحبته للدواء المر جديرٌ بأن يقال له إنه وجد مرارة الإيمان لا حلاوته. وإنما يجد حلاوة الإيمان من كان هواه في تلك المحبة مناصرًا لعقله ومُسايرًا له جنبًا إلى جنب.

غير أننا حين نتكلم عن وجوب محبة الله ورسوله ووجوب إيثارهما بالمحبة على ما سواهما، تتشوف النفس إلى معرفة نوع هذا الوجوب: هل هو من قبيل وجوب الأصول والأركان الاعتقادية؟ أم هو من وجوب الفروع العملية؟

والجواب يختلف تبعًا لاختلاف المعنى المقصود من المحبة. إذ يُراد منها تارةً خصوصُ المحبة القلبية، وتارةً هي مع آثارها العملية؟ فالمحبة بالمعنى الأول واجبةٌ وجوب الأصول قطعًا، فمن كان حبه لنفسه أو لشيءٍ من الأشياء كحُبه لله ورسوله أو أشد فليس في قلبه من الإيمان حَبة خردلٍ لأن الله -تعالى- جعل هذه المحبة الراجحة من لوازم الإيمان وجعل ما دونها من أوصاف المشركين فقال تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥)

فإن قال قائلٌ: إن هذا الحكم يُخرج كثيرًا من المسلمين عن الإيمان.

قلنا: بل لا يخرجُ عنه إلا من كان كافرًا عريقًا في الكفران. وبرهاننا الاختبار. فلنعمد إلى رجلٍ من عامة المسلمين ولنقل له: «قَدِّر في نفسك أنك رأيت رسول الله ﷺ حيًا وقد قصدهُ أحد أعدائه بسوءٍ. وكنت بالخيار بين أن تُسلمهُ فينال منه عدوه وبين أن تدافع عنه فتهلك دونه. فأي الأمرين تختار؟» لِنَقُلْ له ذلك ولِنَدَعْهُ يحكم بوجدانه وعاطفته.

فهل لو كان أضعف الناس إيمانًا وأكثرهم عصيانًا يتردد لحظة في أن يقول: بل أفتديه بنفسي وأهلي وما ملكت يميني. فذلك الشعور هو مقياس تلك المحبة الراجحة التي تُخامر قلب كل مؤمن. إلا أن الإنسان كثير النسيان، فتبقى عنده هذه المحبة كامنةً مغمورةً مادام سُلطان الهوى والطبع مُتحكمًا، ولكنه إذا ذُكِرَ تذكر. فمن لم يجد في نفسه هذا الشعور إذا ذُكِّرَ به فهو كاذبٌ في دعوى الإيمان.

قال القرطبي ما خلاصته: «إن كل من آمن بالنبي ﷺ إيمانًا صحيحًا لا يخلو من وجدان شيءٍ من تلك المحبة الراجحة، حتى إن كثيرًا من المستغرقين في الشهوات إذا ذُكر النبي ﷺ اشتاق إلى رؤيته بحيث يؤثرها على أهله وماله، بل منهم من يؤثر زيارة قبره ورؤية مواضع آثاره على جميع ما ذُكر، لما وقر في قلوبهم من محبته غير أن ذلك سريع الزوال لتوالي الغفلات». اهـ.

نعم المحبة الكاملة الرجحان لا يقف الأمر فيها عند تمني حياة الرسول والاشتياق إلى رؤيته، بل تتصل فيها محبة ذاته وتمني حياته بمحبة سُنته وتمني علو كلمته وانتصار شريعته، إذ (كل شيءٍ من المحبوب محبوبٌ). بل لا يكمل رجحان المحبة ما لم تُثمر تلك الوجدانات القلبية ثمراتها الخارجية وتستتبعُ آثارها العملية.

ومما يعين على ذلك معرفة حكمة الشريعة وأنها إنما وضعت لمصالح العباد في العاجل والآجل، فليس فيها أمرٌ إلا لمصلحة المكلف ولا نهي إلا لدفع ضررٍ عنه. فإذا رسخت هذه المعرفة وطالعتها النفسُ آنًا بعد آنٍ اتصل حُب الشريعة بحب صاحبها. وإذا انضمت إلى ذلك التجربة العملية باعتياد الطاعات ترعرعت نواة المحبة ونمت وآتت ثمراتها حتى لا تكون قُرة عينه وراحة قلبه إلا في العمل بطاعة الله ورسوله.

وها هنا مراتب متفاوتةٌ بين فريضة ونافلة

فكلما كان المرء أكثر إيثارًا لطاعة الله ورسوله على استيفاء الحظوظ الدنيوية كان أقوى لهما محبةً وأصح إيمانًا. وكلما تهاون في شيءٍ منها دل على ضعف إيمانه بهما وقلة محبتهما بقدر ذلك التهاون. فالاتباع هو علامة المحبة ودليلها:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾

(آل عمران: ٣١)

وبهذا تَبَيّنَ أن تعليق الإيمان على المحبة الراجحة في قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه ... إلخ»(٤). تعليقٌ صحيحٌ في حقيقة الإيمان ومجازه، لأن أصل الإيمان موقوف على أصل ذلك الرجحان، وكماله موقوفٌ على كماله. والله المستعان.

وَالْخَلَّةُ الثانية: «أن يُحب المرء لا يُحبه إلا لله»: جملة «لا يحبه إلا لله»: جملة حاليةٌ. ويقاس على المحبة ضدها. فيقال: «وأن يبغض المرء لا يبغضه إلا لله». كما صرحت به رواية النسائي ولفظها: «وأن يُحب في(٥) الله ويبغض في الله».

والمعنى أن من تمام إيمان المرء ألا يكون في حبه أو بُغضه تابعًا لحظ النفس والشيطان، بل يكون في ميله دائرًا مع الحق حيث دار. فيحب من يحبه الله من أهل الدين والاستقامة لا لشيءٍ سوى أنهم على حالٍ تُرضي الله، ويبغض من يبغضه الله من أهل الجحود والانحراف لا لشيءٍ سوى أنهم على حالٍ تُغضب الله. فمن وجد ذلك من نفسه فقد استكمل الإيمان وذاق حلاوته.

وأما من كانت محبتهُ للغير لا تعتمد هذا الباعث فهو إما عارٍ عن أصل الإيمان وإما ذو حظ ضعيفٍ منه على حسب اختلاف البواعث.

فمن أحب كافرًا لكفره فلا شك أنه كافرٌ مثله.

ومن أحب فاسقًا لفسوقه فإن كان رضاه بمعصيته من حيث إنها معصيةٌ ومخالفةٌ لله فتلك محاربة عدو لعدوه لا تجتمع والإيمان في قلب واحد، وإن كان رضاه بها لا من هذه الجهة بل من جهة ميل الطبع إليها، كمن يُحب قاتل عدوه لأنه شفى صدره وأراحه من خصومته في أمر دنيوي كان ذلك نقصًا شديدًا في دينه؛ لأن الرضا بالمعصية معصيةٌ. ومن أحب أحدًا لا لطاعته ولا لمعصيته بل لدنياه، كمن يحب الإنسان لماله أو جاهه أو جماله أو قوته أو حُسن بيانه أو لنفع دنيوي يصل منه إليه فهو ناقص الإيمان أيضًا، إلاّ أنه أقل نقصًا مما قبله؛ لأن مقاومة هذه البواعث مقاومةٌ لغرائز متأصلة في النفوس، وتعديل مزاج النفس على وفق الشرع يحتاج معالجة ومجاهدة طويلةً حتى تُسقط من حسابها تلك النزعات كلها وتُحل محلها عاطفة الدين وحدها. وتلك مرتبةٌ لا ينالها إلا أولو العزائم القوية، ولذلك لا نجدها إلا في الآحاد من المسلمين، فقلما يحب الرجل من يجفوه ولو كان لله وليًا، وقلما يُبغض من يبره ولو كان لله عدوًا.

وربما اجتمعت بواعث الدين والدنيا على محبة شخص أو عداوته فيسبق الهوى إلى محبته أو بُغضه قبل وزن الداعية بميزان الشرع ثم يزعم صاحب هذا الوجدان أن هواه قد وافق رضا الله. وهيهات هيهات، فإن قوله ﷺ: «لا يُحبه إلا لله» صيغةٌ حاصرةٌ لا يُفهم ما فيها من الحصر على وجهه الحقيقي(٦) حتى يكون باعث الدين

(٤) صحيح مسلم: ١/٦٧- ١- كتاب الإيمان - ١٦- باب وجوب محبة رسول الله ﷺ الحديث رقم (٧٠).

(٥) لفظ «في»: للسببية كما هو واضح.

(٦) أما إن أخذ الحصر على وجه إضافي بمعنى أنه: «لا يحب أحدًا لعداوته لله» فإن هذه الخصلة تصير من أصل الإيمان لا من كماله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢٢).

محضًا خالصًا، أو يكون على الأقل هو الباعث الأول، ويكون جانب الدنيا إن جاء بعد ذلك جاء مُتممًا وعلاوةً.

بل المؤمن الكامل تتحول في نفسه البواعث الدنيوية بالنية والقصد بواعث دينية متى كانت معتبرة في نظر الشرع. وذلك بأن يلاحظها من جهة استحسان الشرع لها لا من جهة حظ نفسه، كما يحب صانع المعروف إليه لأنه واسطةُ نعمة الله عليه، ولأن شكره من شكر الله. قال ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»[٧] (رواه أحمد والترمذي بإسناد صحيح). وكما يحب الأنيس الودود لأنه على خلق من أخلاق المؤمنين الذين يألفون ويؤلفون. قال ﷺ: «المؤمن يألفُ ويؤلفُ. ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. وخير الناس أنفعهم للناس» (رواه الدارقطني بإسناد صحيح). ويقاس على ذلك ما أشبهه، «فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئٍ ما نوى»[٨].

وبعد، فالمحبة في الله من وسائل التأسي بالصالحين في هديهم وخلقهم لما جبل عليه الإنسان من الميل إلى محاكاة من يحبه، ثم هي بعد ذلك من أسباب مرافقتهم في الجنة ولو لم يصل المحب إلى درجتهم في العمل. فمن فاته بعض الكمال فلا يفوتنه محبة أهلِ الكمال.

روى الشيخان وغيرهما أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: «متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله. فقال ﷺ: أنت معٍ من أحببت. قال أنسُ: فما فرحنا بشيءٍ فرحنا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت. قال: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكرٍ وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لمّ أعمل بمثل أعمالهم».

والخلة الثالثة: «أن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يعود في النار» وفي رواية: «أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره ... إلخ»:

«العود»: يطلقِ تارةً بمعنى الرجوع إلى ما كان فيه. ويطلقِ تارةً أخرى كما هنا وكما في قوله تعالى حكاية عن شُعيب -عليه السلام-:

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾

(الأعراف: ٨٩)

بمعنى الصيرورة إلى الشيء المهجور المتروك سواءٌ أكان تركه من أول الأمر أم بعد استمساكه به وقتًا ما. فتشمل هذه العلامة من سبق له عهدٌ بجاهلية ومن نشأ على الإسلام من حين عقل. ويشبه أن تكون العرب قد فرقت بين المعنيين بالحرف، فالعود بالمعنى الأول يتعدى بإلى. وبالمعنى الثاني يتعدى بفي. ومنه قوله ﷺ: «العائد في هبته كالعائد في قيئه» (رواه الشيخان وغيرهما)[٩].

و«النار»: إما أن يراد بها نار الدنيا لأنها أقرب إلى العهد. وإما أن يراد بها نار الآخرة لأنها غاية الكفر، وكثيرًا ما تُستحضرُ الغايات عند ذكر مباديها، بل قد تتمثل الغاية في المبدأ حتى كأنهما شيءٌ واحدٌ. وفي مثل ذلك يقول الله -تعالى-:

---

(٧) سنن الترمذي: ٦/١٨٨-٢٨-كتاب البر والصلة- ٣٥- باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك- الحديث رقم (١٩٥٦).

(٨) صحيح البخاري: ١/٢- كتاب بدء الوحي.

(٩) صحيح البخاري: ٣/٢١٥- كتاب الهبات- باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته. وصحيح مسلم: ٣/١٢٤١-٣٤- كتاب الهبات- ٢- باب تحريم الرجوع في الصدقة والهبة- الحديث رقم (٧).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ (النساء: ١٠)

هـذا ولا يخفـى علـى المتأمل أن هـذه الخلة الثالثـة راجعة إلـى الأولى مؤكدةٌ لهـا كما يؤكد إثبـات الشـيء بنفـي نقيضه. فـإن مـن كان الله ورسـوله أحب إليه مـن كل محبـوبٍ كان الكفر بالله ورسوله أبغض إليه من كل مبغوض، ولا شيء أبغض في الآلام الحسية من العذاب بالنار. فيكون ألمهُ النفسـي من الوقوع في الكفر كألمه الحسي من الوقوع في النار. والأحسـن أن تكونَ النار في هـذه الرواية نار الآخرة وأما فـي الرواية الأخرى: «لا يجـد أحدٌ حلاوة الإيمـان حتى يحب المرء لا يحبـه إلا لله وحتـى أن يقذف في النـار أحب إليه مـن أن يرجع إلـى الكفر... إلخ» فيـراد منها نار الدنيا، وبذلك يجمع بين الأحبِّيَّة في هذه الرواية وبين المماثلة في الرواية الأولى.

«أخرجه الخمسة إلا أبا داود»: كلهم أخرجوه فـي كتاب الإيمـان. فالترمذي في بـاب منه غير مترجـم، والبخـاري والنسـائي في بـاب: حلاوة الإيمانً. ومسلمٌ في باب: بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

***